مِـنْ مُـفَـكِّـرَتِـي

كُنْتُ صَغيراً مِثْلَكُم، في سِنِّ الثَّامِنَةِ أوْ دُونَها بِقَلِيلٍ، وكُنْتُ تِلْميذاً في مَدْرَسَةٍ ابْتِدائيَّـةٍ اسْمُها نُورُ الدِّينِ الشَّهِيد. بَينَ بَيْتي ومَدْرَسَتِي زُقاقٌ ضَيِّقٌ ، وسُوقٌ مَسْقوفٌ يُسَمُّونَهُ السُّوقَ الطَّويلَ، ثُمَّ سَاحَـةٌ مُتَرامِيةُ الْأَطْرافِ يَدْعونَها سَاحةَ بُرْجِ السَّاعَـةِ... فَفِي أَيَّامِنا تِلْكَ لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ سَيَّارَاتٍ مُخَصَّصَةً لِنَقْلِ التَّلاميذِ، ولَمْ يَكُنْ في مَقْدورِ آبائِنا تَحَمُّلُ مَصارِيفِها الباهِظَةِ!..

وذاتَ يومٍ مِنْ أَيَّامِ شُباطٍ الباردةِ اسْتَيْقَظْتُ كَعادَتِي؛ وفُوجِئْتُ بِأَنَّ ضَوْءَ النَّهارِ يَمْلأُ الغُرْفَةَ!.. وتَلَفَّتُّ حَوْلي فلَمْ أَجِدْ أحَداً!.. أَخي الْـكَبيرُ سَهْلٌ لَمْ يكنْ يُذاكِرُ دُرُوسَهُ كَعادَتِهِ في ذلِكَ الوَقْتِ. أُخْتي الصُّغْرَى هَنا لَمْ تَكنْ أمامَ المِرْآةِ تُسَرِّحُ شَعْرَها كما تَفْعَلُ كُلَّ يومٍ. وبَقِيَّةُ إِخْوَتي وأَخَواتي لَمْ أَسْمَعْ لَهُمْ حِسًّا وَلَا حَرَكَةً، وَلَمْ أَعْرِفْ في أَيِّ مَكانٍ هُمْ؟!.

تَساءَلْتُ بَيْني وبَيْنَ نَفْسِي: أَيْنَ ذَهَبوا جَميعاً؟!. تَناهَى إِلَيَّ أَصْوَاتٌ قَادِمَةٌ مِنْ غُـرْفةٍ مُجاوِرةٍ، سِرْتُ بِخِفَّةٍ حَتَّى وَصَلْتُ بابَها، فَتَحْتُه قَلِيلاً. فوَجَدْتُهُم جَميعاً مُتَحَلِّقِينَ حَوْلَ المِذْياعِ، وَكانَ صَوْتُ المُذِيعِ يُطِلُّ بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ، يُهَنِّئُ المُسْتَمِعينَ، ويَزُفُّ إِلَيْهِمْ بَشائِرَ لَمْ أُدْرِكْ ما هِيَ... وَقَفْتُ دَقائِقَ أَنْظُرُ مِنْ شِقِّ البابِ... وعِنْدَما فَتَحْتُه عَلى مِصْرَاعَيْهِ، نَظَروا إِلَيَّ بِاسْتِغْرابٍ، وأَنا قُلْتُ لَهُمْ:

-لِمَاذَا لَمْ تُوقِظُونِي؟!. أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ مَوْعِدَ المَدْرَسَةِ قَدْ فَاتَنِي؟!.

قَالُوا: "لَقَدْ تَرَكْناكَ نائِماً يا نَوَّامُ! فاليَوْمَ عُطْلَةٌ!"

سَأَلْـتُهُمْ: "عُطْلَةٌ !!! وَمَا الْمُناسَبَـةُ؟!." قَالَ أَخي وَلِيد وَهُو يَضُمُّني إِلَيْهِ:

-اَلْيَوْمَ عِيدٌ. وَالمَدارِسُ تُغْلِقُ أَبْوابَها في الْعِيدِ. أَلَيْسَ كَذَلِكَ!؟

سَأَلْتُهُ وَالدَّهْشَةُ ماتَزالُ تَتَمَلَّكُنِي: "وأَيُّ عِيدٍ هَذَا؟"

قَالَ: "إنّه عِيدُ الوِحْدَةِ يا عَزيزِي، أَتُرِيدُ عِيدِيَّتَكَ أم أَسْتَرْجِعُهَا؟"..

سَأَلْتُهُ حَزِينًا: "أَيُّ عِيدٍ، وأَيَّةُ وِحْدةٍ؟"..!

أَرْدَفَ أخي: "أَصْبَحْنا سُورِيا ومِصْرَ دَوْلَةً واحدةً ! أَلَيْسَ هَذا عِيداً؟!."

لَمْ أَفْهَمْ مَعْنَى هذا الكَلامِ، ولكنَّنِي تَذَكَّرْتُ -وَقْتَئِذٍ- حِكايةً قَرَأْتُها في كِتابِ قِراءَتِنا: الشيخُ الَّذي جَمَعَ أَوْلادَه حَوْلَهُ، وأَمَرَهُمْ أَنْ يَكْسِروا حُزْمَةَ عِصِيٍّ... فَلَمْ يَتَمَكَّنُوا... وَعِنْدَما أَعْطاهُم كُلَّ وَاحِدٍ على حِـدَةٍ؛ كَسَروهَا بِسُهولةٍ... فقال لَهُم: "اَلْوِحْدَةُ قُوَّةٌ، والتَّفْرِقةُ ضَعْفٌ!"

آه!.. مَا أَحْلَى اِجْتِماعَنا ذَلِك الْيَومَ! وما أَشْهَى فُطُورَنا الَّذِي بُسِطَ أمامَنا!

وفي الشَّوارِعِ حَلَقاتٌ لِلدَّبْكَة، أَلْعابٌ لِلسَّيْف، أَعْلامٌ تُرَفْرِفُ، أَقْواسٌ تُقامُ، حُلوَى تُوَزَّعُ، رَصاصٌ يُلَعْلِعُ، حَناجِرُ تُرَدِّدُ:

-شَعْبٌ وَاحِدٌ لا شَعْبَانِ!.. عَلَمٌ واحِدٌ لاَ عَلَمانِ!..

عُرْسٌ حَقيقيٌّ، جُموعٌ مُنْدَفِعةٌ مِنْ غَيْرِ إجْبارٍ، وَقَـدِ امْتَلأَتْ نُفُوسُها بِآمالٍ عَظيمةٍ... يَوْمَئِذٍ اسْتَغْرَبْتُ هذا الاِنْدِفاعَ، ودُهِشْتُ لِهذِهِ الحَماسَةِ... وَلَكِن- مَعَ مُرورِ الأَيَّامِ- أَدْرَكْتُ سِرَّ فَرْحَتِهِمْ وبَهْجَتِهِمْ، وعَرَفْتُ قِيْمَةَ عِيدِهِمْ وَاحْتِفالِهِمْ... وشَيْئاً فَشَيْئاً غَدَتْ أَحْلامُهُمْ أَحْلامِي، وآمالُهُم آمالِي... فما أَرَقَّها وأَعْذَبَها!.. وقَدْ مَلأَتْ كِيانِي. لَقَدْ مَرَّ عَلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ أَرْبَعونَ عاماً، وماتَزالُ صُوَرُهُ ماثِلةً في خَيالي، لا أَسْتَطيعُ لَها دَفْعاً. أَذْكُرُها وقَلْبي يَكادُ يَتَفَطَّرُ، لِأَنَّ هذه الوَحْدةَ لم تَبْقَ، وَلِأَنَّ وِحْدَةً مِثْلَها لمْ تَأْتِ بَعْدُ !